الفصل الرابع

الفضيلة ونظرية الفن

«اعرف نفسك بنفسك»

حكمة نادى بها سقراط، وجاهد من أجلها، فوجه الفلسفة وجهةَ غير التي كانت عليها وأنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض ـ كما وصفه بذلك الفيلسوف الروماني شيشرون (١٠٦ ـ ٤٣ق.م.).

وعلى درب أستاذه سار أفلاطون، وجعل الأخلاق والفضيلة غاية أبحاثه في الطبيعة والسياسة. ولم ينفصل عن عصره الذي انتشر فيه السوفسطائيون، فخاض معمعمة الصراع الفكري، وجادلهم وألزمهم الحجة وأعلى من شأن الفضيلة والمثل الأعلى، وأبقى العقل في شامخ عليائه، له حق القيادة الراشدة بفضل تنسمه للخير الأسمى، وامتلاكه جوهر الحقيقة الإلهية والبشرية.

ولأفلاطون عقل الحكيم، وإحساس الأديب، وتذوق الفنان، فلا عجب إن أدلى برأيه في قضايا الأدب ولم ينس ـ وهو يؤسس دولته المثلى ـ دور الموسيقى والشعر في حياة الناس، وقد قال أحد الباحثين:

(سلّمني قيادة الغناء في أمة وأنا كفيل بتغيير قوانينها).

وبعمق الفيلسوف ووعي عالم النفس، قسّم أفلاطون قوى النفس وأبرز فضائلها، ووزع الناس تبعاً لميولهم وغالب اتجاهاتهم.. ثم أذّن في

الناس بأن واجب الخاد أن يهتم بالخلود، فالنفس خالدة ولحن الوجود هو الفضيلة والله لا تخفى عليه خافية..

ولتفصيل ذلك نتكلم عن:

١ ـ حملة أفلاطون على آراء السوفسطائيين.

٢ ـ قوى النفس وفضائلها.

٣ ـ السفهاء من الناس عند أفلاطون.

٤ ـ نظرية الفن الأفلاطونية.

أولاً: حملة أفلاطون على آراء السوفسطائيين:

سبق أن تكلمنا عن الحياة الفكرية في عصر أفلاطون، وكيف ظهر السوفسطائيون على إثر تناقض الفلسفة، وخرافة الوثنية الدينية، واضطراب السياسة الأثينية..

وقد قاد أفلاطون حملة كبرى على السفسطة وأربابها، وتمخضت تلك الحملة عن مجموعة محاورات مثل: بروتاجوراس وجورجياس وهيبياس وهم زعماؤهم، ومحاورة السوفسطائي وهو الوصف العام لهم بالإضافة إلى بعض شخصيات سوفسطائية ظهرت في محاورات أخرى مثل تراسيماخس في محاورة الجمهورية، وهي محل بحثنا الآن..

ففي الكتاب الأول من الجمهورية استعراض للتعريفات الشائعة عن العدالة، وخلال الحوار بين سقراط (أو بالأحرى أفلاطون) وصحبه يقاطعهم «تراسيماخس» السوفسطائي ويقدم تعريفاً للعدالة هو: منفعة الأقوى.

ذلك أن القوة الكبرى في يدي الحكومة، وكل حكومة تسن من الشرائع ما يلائمها، وتعاقب من يتمرد عليها، كمجرم خارج عن العدالة والقانون.. فالنتيجة أن منفعة الحكومة هي العدالة.

وهنا استدرجه سقراط، وحمله على الاعتراف بأن الحكام ليسوا

معصومين دائماً، بل قد يسنون من الشرائع ما يضرهم، فالنتيجة هي أن العدالة لا تنحصر في منفعة الأقوى بل قد تكون فيما يضره. . .

وعاد السوفسطائي ليأخذ زمام المبادرة، ويطلب من سقراط أن يراعي الوصفية حال الحكم، فمن أساء معالجة المرضى لا يسمى طبيباً باعتبار إساءته فلا فني يخطىء كفني، ومن أخطأ فقد أخطأ لنقص فنه؛ فكذلك الحاكم ـ كحاكم ـ لا يخطىء فهو ـ إذن ـ يسن الأفضل لنفسه، وهو ما يجب على الرعية اعتباره، فالعدالة هي منفعة الأقوى كما سبق، وحاول سقراط بأسلوب رقيق أن يستنطق السوفسطائي بأن الطبيب الذي يعنيه هوشافي المريض، وليس جامع المال وأنه ليس من واجب الفن السعي في مصلحة غير ما لأجله كان فناً، وعلى هذا فالحكام في مناصبهم لا يكترثون لمصالحهم الشخصية بل يمارسون الحُكم لأجل الرعية، فالعدالة ـ إذن ـ هي منفعة الأضعف، وهو الرعية. . !!.

وبسخرية ضحك السوفسطائي وقال: هل رعاة الماشية يسمنونها لغير منفعتهم الخاصة؟! وهل يسهر الحكام آناء الليل وأطراف النهار لغير أرباحهم ومنافعهم الشخصية؟! إن العدالة هي منفعة الحاكم وهو الأقوى. .

ونهض سقراط (أفلاطون) ليُلزم السوفسطائي بسابق رأيه، وهو مراعاة الوصفية حال الحكم، فالراعي بمعناه الحقيقي، هو الذي يوافي الماشية بالعلف على قدر ما يتطلبه كمالها، فذلك هو كل ما يشتمل عليه لقبه الخاص، وعلى نفس القياس فالحكومة ـ كحكومة ـ لا تطلب إلاّ ما هو خير المحكومين الذين ترعاهم. .

والملاحظ في الحكومات الراقية أنه لا أحد يحكم مختاراً، وأن كلاً منهم يطلب المكافأة على الحكم؛ لأن فائدته تعود على المحكومين لا على الحكام. . فلكل فن منفعته الذاتية، التي لأجلها وجد فالطب للصحة، والتجارة للمال والملاحة للأمان في البحر، إلاّ أن لكل فن منفعته الثانوية أيضاً فالطبيب الذي يتقاضى أجراً لا نسميه تاجراً، والملاّح الذي تتحسن

صحته بأسفار البحار لا يجعلنا نسمي الملاحة طباً، وهكذا فالحكم لخير الشعب وما يتقاضاه الحكام من مكافآت فهو منفعة ثانوية..!!.

وكان السوفسطائي قد ادعى أن حياةالظالم خير من حياة العادل، وأن الظلم أجلب للشهرة، وأجمع للمال، وأسعد للنفس، وأن الظلم من شيم النفوس ولا أحد يعدل مختاراً..

وقد قاده سقراط إلى الاعتراف بما يلي:

١ ـ العادل لا يتجاوز ندّه، ولا يكتسب مزايا تفوق ما يكتسبه عادل آخر، بل يسعى دائماً إلى أن يعلو على ضده وهو الظالم.

ولكنَّ الظالم يتجاوز نده وضده معاً، فهو يتمادى في الظلم ويسعى إلى أن يتخطى رقاب الناس جميعاً ظالمهم وعادلهم.

٢ ـ العدالة توثّق أواصر الصداقة والوفاق، وهي ضرورية حتى بين الظالمين، فهل تستمر عصابة وتنجح في مسعاها وقد فشا التعدي بين أفرادها؟!.

٣ ـ من يحيا حياة العدالة سعيد مبارك، وعلى الضد من ذلك من يحيا حياة الظلم؛ لأن العادل حبيب الله، والظالم حليف الشيطان..

وأخيراً انسحب «تراسيماخس» وبقي سقراط الأفلاطوني مع صحبه في حوارهم الهادىء وجدلهم الهادف يحاولون الوصول إلى التعريف الصادق..

فما هي العدالة إذن؟.

فإلى البحث التالي.

ثانياً: قُوى النفس وفضائلها:

الدولة شخص كبير، والفرد دولة صغيرة، والفضيلة في الفرد كالفضيلة في الدولة.. تلك بديهة آمن بها أفلاطون، واعتبر دراسة الدولة

وعدالتها مقدمة لدراسة الفرد وعدالته، وقد تقدم الحديث عن الدولة المثلى وحكومة الفلاسفة، والآن نحاول أن نتبين قوى النفس وفضائلها على القاعدة نفسها.. قسّم أفلاطون النفس إلى ثلاث قوى:

١ ـ **القوة الذهنية**: وبها يعقل الإنسان ويفكر ولها الحكم على قواه الأخرى وتقوم بتدبير مصالح النفس كلها، وباستقامتها يسمّى الإنسان حكيماً.

٢ ـ **القوة الغضبية**: وبها يندفع المرء لإحراز القوة والشهرة، وتتقد فيه جذوتها حين يرى أن قد مسه الضر ظلماً وعدواناً، وقد يتحمل ألم الجوع وشدة العطش حتى يشعر بالرضا، أو يهدىء عقله من ثورته، ويدعوه إلى الكف عنها كما يصد الراعي كلبه...

وباعتبار ذلك العنصر الحماسي يسمى المرء شجاعاً...

٣ ـ **القوة الشهوية**: وهي حليفة اللذة في الطعام والشراب والجنس، وفضيلتها ضبط الشهوات، ومحاربة الشطط والإسراف في الأهواء، وبذا يسمى الإنسان عفيفاً....

ويرى أفلاطون أن القوة الغضبية حليفة للقوة الذهنية، ومهمتها حراسة النفس والجسد ضد هجمات القوة الشهوية، فيمارس الذهن فكره وتدبيره، وتخوض القوة الغضبية المعركة وهي مجهزة بالشجاعة، استجابة لقرار الذهن وذلك حتى لا يسود القسم الشهوي الذي يؤلف الجانب الأكبر من كل إنسان ويطمح إلى التسلط ويتعدى حدوده...

وبانسجام هذه القوى الثلاث، وخضوع القوة الشهوية للقوة العضبية وتنفيذ هذه النفس لأوامر العقل، عندئذ نكون أمام فضيلة العدالة وبذا يتمتع كل قسم بلذته الخاصة بأفضل شكل ويتم عمله المنوط به دون أدنى تقصير...

والعدالة هي أسمى أنواع الخير، ذلك أن هناك خيرات نرغب فيها لذاتها، بغض النظر عن نتائجها، كعاطفة السرور والمتع البريئة، وهناك

طائفة أخرى تراد لنتائجها فقط: كالرياضة البدنية ورعاية المرضى وممارسة الطب. فهذه أشياء مرهقة ومن المحال أن نختارها لذاتها، وإنما لما ينشأ عنها من فوائد ومكافآت، وتوجد طائفة من الخيرات تراد لذاتها ولنتائجها، كالمعرفة والصحة والبصر، وفي قمة ذلك العدالة فهي أفضل الخيرات التي ينشدها طلاب السعادة الحقيقية.

وشبه أفلاطون النفس وقواها الثلاث بكائن يتجاور فيه مخلوق غريب الشكل له قدرة على توليد رؤوس لحيوانات وحشية، يخفيها أو يغيرها متى شاء ويمثل قوة الشهوة، مع أسد أقل حجماً من سابقه، ويمثل قوة الغضب، بالإضافة إلى إنسان أصغر من الأسد ويمثل العقل، ويضم الثلاثة (الحيوان والأسد والإنسان) جسم إنسان، بحيث لا يعلم الناظر ما وراء ذلك الظاهر...

أليس من العدالة أن يسود الإنسان الباطني على الإنسان كله، وأن يستعين بالأسد كحليف على تأليف الوحش المتعدد الرؤوس؟!.

فالعدالة هي المبدأ الذي يوحد النفس وقواها، والإنسان الحقيقي هو النفس العاقلة، باعتبار علاقتها بما هو إلهي وخالد وأزلي..

وساق أفلاطون في الجمهورية دليلاً على خلود النفس، مبنياً على أن كل شيء يفسده ضده من آفة أو شر، والخير لا يفسد شيئاً، فالمرض للجسم، والسوس للخشب، والرمد للعين، والصدأ للحديد.. كل هذه الأشياء تفسد لملاصقة ضدها وحلوله فيها.

ومن جهة أخرى فإن الشيء لا يفسد بفساد غيره، فالجسد لا يهلك بفساد الأطعمة، ولكن إذا أثار ذلك الفساد علة في الجسم فحينئذ نقول إنَّ الجسد هلك بعلته التي سببتها الأطعمة.

وعلى تلك القاعدة نقول في النفس، فهل الظلم وسائر الرذائل يفسدها ويؤدي بها إلى التلاشي والفناء مثل الرمد للعين؟!.

مؤكد أنه لا يحدث ذلك التأثير. . !!

وهل تهلك النفس وتتحول إلى الظلم والعدوان بـأي مرض من أمراض الجسم حتى ولو كان التمزيق إرباً؟!.

لا أحد يقول إن النفس تصير غير عادلة بموت أو مرض جسد كانت تحل فيه. . فالنتيجة إن النفس لا يفسدها ضدها، ولا تهلك بهلاك غيرها فهي خالدة تتميز بالطهارة الكاملة، والجمال الفائق في حال نقائها الأول قبل أن تلوثها مجاورة الجسد، وما يسببه من شرور اللذات والشهوات. . .

ونجاتها اليوم في محبتها للحكمة، واستعلاء العقل على سائر القوى عن طريق منهج التربية الأفلاطوني بقسميه: التربيـة عن طريق الفن، والتربية عن طريق العلوم، حتى يصل الإنسان إلى امتلاك جوهر الحقيقة ويرقى معارج الإدراك العليا إلى صورة الخير الأسمى التي هي أصل العلم وجوهر الوجود، فالفضيلة هي معرفة الخير والرذيلة هي الجهل به.

ومن الملاحظ أن أفلاطون جعل للدين مكانة مرموقة في بحثه عن الفضيلة، واهتم كثيراً بالجزاء الأخروي، وحث الفضلاء على أن يولوا وجوههم شطر الخلود والأبدية، بدل أن يحصروا أنفسهم في النطاق الضيق من المهد إلى اللحد.

وأعظم جزاء للعدالة هي ثواب الله، الذي لا تخفى عليه خافية، وأكبر عقاب للرذيلة هو غضب الله، ومهما أصاب العادل في دنياه من مرض أو فقر أو أي ألم آخر فإن عاقبته دائماً هي الحسنى وسينال جزاءه الأوفى في حياته أو بعد مماته؛ لأن الله لا ينسى من جاهد جهاداً حسناً في عمل البر والتحلي بالفضيلة والتخلق بأخلاق الله على قدر الطاقة الإنسانية.

وإن الظالم مهما خدع الناس وخفي أمره، فإن انكشاف ستره محتوم وسوء منقلبه حتمي!!.

ويوضح أفلاطون الجزاء الآخروي ثواباً وعقـاباً، بـإيراد أسـطورة

«آربن أرمينيوس» وهو رجل شجاع قتل في إحدى المعارك، وبعد انتهائها بعشرة أيام جمعت جثث القتلى وهي في حالة انحلال، لإجراء مراسم الدفن وكانت جثة «آربن أرمينيوس» لا تزال رطبة فحملوها إلى البيت وفي اليوم الثاني عشر، وبينما هو مسجى عادت إليه الحياة، فبدأ يقص على الحاضرين مشاهداته في العالم الآخر. . فبين أهوال الموقف وشدة الحساب وخطورة الفصل بين الناس، وعقاب الأشرار وجزاء الأبرار. . .

والخلاصة التي وصل إليها أفلاطون هي أن النفس خالدة، ولها حرية فعل الخير والشر، والمسؤولية تقع على من يختار، والسماء بريئة، وطريق الوصول إلى العلا هو العدل والحكمة، وبذا تتحقق لنا السعادة في الدنيا والآخرة.

ثالثاً: السفهاء من الناس:

تحدثنا في الفصل السابق عن أنواع الحكومات لدى أفلاطون، في تسلسلها المتعاقب وحيث إن اعتقاد أفلاطون هو أن الدولة صورة مكبرة للفرد، وأنها تنبت على ما رجح من صفات المواطنين ـ فهناك ـ إذن ـ خمسة أنواع من الأفراد: ـ

١ ـ الإنسان الذي يمثل الأرستقراطية العقلية التي تمكنه من الاحتفاظ بالفضيلة مدى الحياة، وهو ما جاهد من أجله أفلاطون وعليه تقوم دولته المثلى. .

وتبعاً لسنة الله في خلقه، فقد يعتري منهج التربية قصور أو يتساهل القائمون عليه في تطبيقه، وهنا تتوالد نماذج من البشر تتباعد تدريجياً عن الفضيلة والخير فينشأ ما يلي:

٢ ـ الرجل التيموقراطي.

٣ ـ الرجل الأوليجاري.

٤ ـ الرجل الديمقراطي.

٥ ـ الرجل المستبـد.

وهـاك موجزاً لذلك التصور.

الرجل التيموقراطـي:

إنه ابن رجل فاضل عاش في مدينـة ساء نـظامها، فعـزف عن المناصب ومظاهر التكريم فأحنق ذلك زوجته عليه، وظلت ترضع ولدها أن أباه ليس رجلاً، وأنه متهاون إلى حد الإفراط..

وحيثما اتّجه الولد سمع الناس يقولون: إن المسالمين حمقى، فإذا قارن ذلك بما يسمعه من أبيه حول الحكمة والفضيلة، والخير، وقع بين قوتين متجاذبتين، فهناك الملكة العقلية التي يغذيها أبوه وينميها، وهناك من جهة أخرى ملكتا الانفعال والشهوة يثيرها الناس من حوله.

ولما لم يكن ذلك الشاب بطبيعته شريراً، وإنما اختلط به رفاق السوء فإنه يتخذ طريقاً وسطاً، وينقاد لسيطرة الملكة الانفعالية، ويغدو رجلاً متعلقـاً بمظاهـر التشريف، ويستنـد إلى مواهبـه العسكريـة، وأمجاده في الحروب.

وهو بالضرورة أكثر اعتداداً بنفسه وأقل ثقافة وإن لم يكن عدواً لها. وهو يحسن الاستماع ولكنه لا يجيد التحدث، وقد يحتقر الثروة في شبابه، ولكنه يزداد بها تعلقاً كلما تقدمت به السن؛ لأن نفسه تنطوي على بذور التقتير، ولأن فضيلته ليست خالصة، إذ إنـه يفتقر إلى أفضـل ضمان يعصمه في حياته وهو الفلسفة..!!.

* * *

الرجل الأوليجـاركي:

إنه ابن التيموقراطي، يقلد في أول الأمر أباه! وفجأة قد يرى أن أباه انشق على الدولة، وبعد أن كان يحتل منصباً رفيعاً أو مركزاً مرموقاً يساق

إلى المحكمة بدسائس الوشاة فيحكم عليه بالموت أو النفي أو الحرمان من الحقوق ومصادرة الأموال.

عندئذ يتملك الرعب قلب الفتى، فيتخلى عن روح الطموح والكبرياء، وحين يذله الفقر، يتجه إلى القيام بعمل مربح ويتمكن بالعمل الشاق والتقتير والتوفير رويداً رويداً من جمع ثروة خاصة به.

وخليق بشخص كهذا أن يعلي في نفسه الجشع والطمع، ويزدري الحكمة والشجاعة، فهو جبان يفضل الهزيمة مع الاحتفاظ بالثروة، وإنسان خسيس ينتزع الربح من كل مصدر.

* * *

الرجل الديمقراطي:

تربى هذا الرجل في كنف والده الأوليجاركي، فنشأ على الجهل والشح، وبالتدريج يتعرف على رفاق منغمسين في اللذات والشهوات فيرتشف معهم، إلاّ أن حاسة الخجل في عقل الشاب تجعله يتراجع قليلاً، ثم تعاوده الشهوة ولذتها فتجره إلى ممارستها سراً، وأخيراً تحاصر قلبه وتعزز مركزها بآراء زائفة، وتنفث في نفسه الصلف والغرور فلا يستمع لنصيحة، ويستسلم لغرائزه، لخلو قلبه من المعرفة الصحيحة والنظريات السديدة التي تحمي نفوس الذين يحبهم الله.

وهنا تتوالى على الشاب أفكار معكوسة، ومفاهيم مقلوبة، فالسفاهة حسن تربية والفوضى حرية، والتبذير كرم، والغرور رجولة، والتواضع غفلة، والحياء حماقة، والعفاف جبن.

وهكذا يقضي كل يوم من أيامه في الخضوع للرغبة التي تعن له، فيوما يثمل على نغمات الموسيقى، وآخر يكسل فيهمل كل شيء، وربما انصرف إلى التفكير الفلسفي لكنه في معظم الأوقات يشارك في سياسة الدولة بقول، أو عمل كل ما يطرأ على ذهنه، وهو في وقت ما يعجب بكبار القواد فيتهافت على امتيازاتهم.

وفي وقت آخر قد يحاكي رجال الأعمال، ويتحول تاجراً حسداً منه للتجار الناجحين.

وعلى الإجمال فهو يساير الشهوة الطارئة، وليس في حياته نظام ولا قانون ويعكف على مسراته ولذته إلى نهاية الحياة!!.

* * *

الرجل المستبد:

نشأ في أحضان أبيه الديمقراطي، وخضع لنفس المؤثرات، فإذا به يندفع إلى حياة ملؤها الفوضى، ويُزكي في نفسه قرناء السوء ـ الرغبات الهوجاء حتى يصبح بطبعه، أو تطبُعه أو بهما معاً عبداً للخمر، والعشق، والفجور.

وعلى هذا فإن موارده ـ إن كانت له موارد ـ سرعان ما تنضب، وسوف يكون من المحتم حينئذ أن تصرخ هذه الرغبات العنيفة، وتلدغه هذه الشهوات الآثمة، فيجري هنا وهناك كالمخبول باحثاً عمن يملك شيئاً ليحرمه منه بالخديعة أو الإكراه.. فتقطع أواصر الرحم والصداقة بينه وبين الناس..

وأصدق وصف لذلك الطاغية، هو الذي يسلك في يقظته ما يسلكه الناس في منامهم..

ذلك أن أفلاطون يرى أن الشهوات التي تنكرها الحكمة، تؤلف قسماً أصيلاً في كل إنسان، فإذا ضبطتها الشرائع وفضائل النفس فإما أن تزول زوالاً تاماً أو تبقى على ضعف واستخذاء.

وحين يكون القسم العقلي الحاكم في النفس نائماً، والقسم الحيواني الوحشي مُثقلاً بالطعام والشراب، فإنه يبحث في النوم عن مجال لنشاطه ومتنفس لشهواته فلا يستنكف عن اتصال جنسي، بأي إنسان، أو حيوان، ولا يتردد في ارتكاب أفظع أنواع القتل والانغماس في شر الرذائل..

وبالاختصار لا حد لجنونه ووقاحته..

ويرشد أفلاطون الإنسان إلى السبيل الذي يريحه من هذه الرؤى المزعجة، بأن يثير عقله بالأبحاث الجميلة السامية قبيل النوم من غير أن يضيق على القسم الشهوي، وبعد أن يطامن من ملكته الغضبية فلا ينام، وفي قلبه حقد على أحد..

وفي هذه الحال تبلغ النفس أعلى درجات الحقيقة، ولا تكون الرؤيا حينئذ إلاّ صالحة.

رابعاً: نظرية الفن:

من وحي الإصلاح الاجتماعي والسياسي، وفي سبيل الفضيلة والعدالة والمثل، نصل إلى نظرية الفن الأفلاطونية بتركيزها على الشعر والموسيقى والتصوير، ثم بشمولها لكافة الفنون بتطبيق المقاييس العامة والقواعد الكلية التي تحكم دولته المثلى..

ولكي نجلي هذه النظرية نستعلم أفلاطون رأيه فيما يلي:

أ ـ التقليد والمحاكاة.

ب ـ قوانين الشعر في أسلوبه وموضوعه.

جـ ـ الموسيقى والغناء..

* * *

أ ـ التقليد والمحاكاة:

إن نظرية المُثل الأفلاطونية هي محور كل فلسفته، وعالم المُثل هو الموجود الحقيقي الثابت، وعلى قمته مثال الخير الذي يمنح الأشياء وجودها ومعقوليتها، ويقابله في عالم الحس كوكب الشمس الذي بفضل أشعته تنكشف المرئيات..

وقد نسج العالم الحسي على مثال العالم العقلي، وكل ما في الكون المادي ظلٌّ لمثاله هناك.

ومن هذا المنطلق يرى أفلاطون أن الله سبحانه وتعالى: قد خلق في طبيعة الأشياء مثلاً تمتاز بالوحدة والثبات والتجرد، ثم توجد المادية على منوالها ثم يأتي الرسام ليقلد الشيء المادي.

فالسرير مثلاً له حقيقة نوعية يعلمها الله، ثم يأتي النجار ليصنع السرير، وفي المرتبة الثالثة يقلد الرسام صنع النجار.

فالتقليد بعيد عن الحقيقة بمرتبتين بل هو نظرة ذاتية تختلف باختلاف الزاوية المنظور منها، والمقلد جاهل بما قلده، ذلك أن في كل شيء ثلاثة فنون:

١ ـ استعماله.

٢ ـ صنعه.

٣ ـ تقليده.

وحيث إنّ فضيلة كل شيء هي في غايته وهدفه، فالذي يستعمل السرير أعرف الناس به ويستطيع أن يخبر الصانع هل أجاد في صنعته أم لا؟ وما على الصانع إلاّ أن يخضع لإرشاده..

فالأول له علم صحيح في أمر السرير، والثاني له علاقة ضرورية بالخبير به أما الرسام فلا يعرف شيئاً ذا بال عما يقلده والرسم عنده مجرد لهو وتسلية. ولنتقدم بعد ذلك إلى الشعر لنرى هل الشعراء يعرفون حقيقة الموضوعات التي يرى الجمهور أنهم أجادوها أم أنهم لا يعرفون إلاّ أشباحاً وظلالاً خدعوا الناس بها حتى عجزوا عن أن يدركوا أنها نسخة ثالثة عن الحقيقة؟!.

لقد تكلم الشعراء في كل الفنون، وزعموا أنهم على علم بكل الأمور الإنسانية: من فضيلة ورذيلة بل وبالأمور الإلهية، ونسي هؤلاء أن أعمالهم كلها تنتمي إلى المرتبة الثالثة.

ولو كان في وسع أحدهم أن ينتج الأصل والصورة معاً، ما كرس

حياته لصنع الصور واتخذها غاية قصوى لحياته، ولنسأل «هوميروس» أمير ناظمي المآسي والمراثي الأعظم، أو أي شاعر آخر:

لماذا لم نسمع عن شاعر منهم في الماضي أو الحاضر أنه شفى مريضاً، أو نقل علمه إلى تلاميذه إذا كانوا حقاً يعرفون الطب ولا يكتفون بمحاكاة كلام الأطباء؟.

وإذا كانوا يعرفون السلوك الذي يجعل حياةالناس أفضل أو أسوأ، فخبرونا عن مدينة دانت لكم بالولاء التشريعي!.

وإن شعر الملاحم ووصف المعارك لكثير لدى الشعراء؛ فلو لم يكونوا مقلدين جاهلين فنبئونا عن معركة قادها شاعر أو خطط لها؟.

أيعقل لو كان «هوميروس» أو غيره من الشعراء قادراً على أن يرقى بالناس في معارج الفضيلة ـ أن يسمح له معاصروه بالتجول هائماً على وجهه ينشد الشعر؟ ألم يكن خليقاً بالناس التضحية بأموالهم في سبيل استبقائه أو السير معه أينما ذهب حتى يتلقوا من التعليم ما يكفيهم؟.

يحق لنا ـ إذن ـ أن نستدل من ذلك كله على أن الشعراء مقلدون يحاكون صور الفضيلة وما شابهها، ولا يصلون إلى الحقيقة، إن الرسام يرسم صانع الأحذية دون أن يعرف إصلاحها، فكذا الشاعر يضع طائفة من الألوان في شكل أفعال وأسماء ليمثل حِرَفاً لا يعرف عنها إلاّ ما يكفي لتقليدها..

وإن الفن بكل شِعَبِهِ يثير فينا النقص الطبيعي، ويخضع للقوى الدنيا في النفس، أليست الأشياء من حجم واحد تظهر مختلفة الأحجام باعتبار قربها أو بعدها عن العين؟ ألا يكون الشيء مستقيماً خارج الماء منكسراً داخله؟ ألا يبدو الشيء محدباً أو مقعراً تبعاً للخداع البصري الذي تحدثه الألوان؟!.

إن هذا الضعف في طبيعتنا، هو الذي يستغله الرسم بالضوء والظل

وغيره من أنواع الخداع البارعة كأنها السحر!!.

ولا مصحح لذلك الخداع إلاّ العقل وقوة الذهن وملكة الخير، وكلها ضحايا الشعر والتمثيل.. فيجب تحديد المواصفات والمقاييس المسموح بها في المجتمع المثالي.

* * *

ب ـ قوانين الشعر والأدب:

عالج أفلاطون قضية الأدب في مادته وصورته، وحدد رسالته في المجتمع.

فمن حيث الصورة قسم الأسلوب إلى ثلاث صيغ:

١ ـ القصة البسيطة التي تروي حوادث متوالية.

٢ ـ الرواية التمثيلية التي تتقمص شخصيات متباينة وتبدي أعظم اهتمام بالنغمة والإشارة.

٣ ـ نوع يجمع بين القصة والرواية ويتمثل في الملاحم وغيرها... .

ويفضل أفلاطون ـ من الناحية الأخلاقية ـ القصة؛ لأنها ذات اتجاه واحد، أما الرواية التمثيلية فيختار منها الملهاة (الكوميديا) على أن تكون متجهة إلى السخرية من الأخلاق الذميمة، والمأساة (التراجيديا) ويجب أن تمثل العواطف النبيلة..

ويرى أفلاطون أن التمثيل يتمكن في النفس بتأثير الإشارات ونغمة الأصوات وطرائق الفكر فينبغي الحذر في تقمص الشخصيات حتى لا تكون هناك شخصية شاذة، أو موقف متبذل يستهوي الإنسان.

ثم إن دولة أفلاطون قائمة على التخصص، وإفراد كل إنسان بعمل واحد، وليس فيها رجل متعدد الطبائع، فإذا جاء إنسان بارع قادر على أن يمثل كل شخصية، ويتكيف مع كل موقف ويُحسن أداء كل انفعال وأراد إعلان مواهبه في المجتمع المثالي، فإن أفلاطون يُبدي نحوه كل احترام كإنسان فنان ذي موهبة ثم يخبره بأن قانون المدينة قاض باقصاء كل من

على شاكلته، ويرسله إلى بلد آخر بعد أن يسكب على رأسه العطور ويزينه بالأكاليل . . ! ! .

* * *

ومن حيث مادة الأدب هاجم أفلاطون الشعراء، بأنهم يرون العواطف التي يجب أن تجف عطشاً وينعشونها ويحكمونها في المجتمع وكان يجب أن يتحكم فيها المجتمع إذا أراد السعادة والرقي . .

وألزم الشعراء بإبراز جمال الله وجلاله، والتأكيد على قدسيته وعظيم صفاته سواء كان ذلك في الشعر القصصي أو الغنائي أو الروائي .

وحدد مجالهم بأنه السمو بالسجايا الأدبية الشريفة، والأخلاق الحميدة، وتأصيل حلو الشمائل في أعماق النفس .

وبكلمة موجزة إن الشعر لا يباح في الدولة إلّا لتسبيح الله وإعلاء صرح الأخلاق . .

جـ ـ الموسيقى والغناء :

أركان الغناء لفظ ولحن وإيقاع، ولا تختلف الألفاظ الغنائية عن غيرها في اعتبار الموضوع الذي يجب أن تتناوله، أما الألحان فتستبعد الموسيقى الصاخبة والمخنثة، ويكتفى بالموسيقى العسكرية التي تثير ملكة الحماس، والموسيقى الهادئة التي تمثل توسلاً أو ابتهالاً إلى الله أو تعليماً وإرشاداً ولا يستعمل من آلات الموسيقى سوى العود والقيثارة، وندع الآلات المتعددة الأوتار والمعقدة التركيب . وبالنسبة للإيقاع فيراعى الأوزان والتفاعيل التي تنسجم مع حياة الاعتدال والشجاعة . .

ومما تجدر ملاحظته أن أفلاطون جعل منهج الموسيقى والفن في المراحل الأولى للتربية، وجعل الغاية منه محبة الجمال وشفافية النفس ودماثة الخلق . . وقد سبق شرح ذلك بالتفصيل(١) . .

---

(١) راجع ص ٧٩.

وقفة تأمـــل

أ ـ «الفضيلة علم»:

قضية آمن بها سقراط وأفلاطون، غير أن سقراط جعلها عامة وأذن بها في الناس حيثما كانوا في السوق أو الشارع، في البيت أو المعبد.. لكن أفلاطون عمق الحكمة وسما بالفضيلة وجعلها أرستقراطية عقلية حتى أخذ عليه أن الفضيلة عنده قاصرة على الفلاسفة الذين خبروا الحياة علماً وعملاً وتنسموا صورة الخير الأسمى وامتلكوا جوهر الحقيقة العليا.

وقد قابل كثير من النقاد هذه القضية بشيء من النقد، وقالوا إن الفضيلة ليست أمر حد أو تعريف، بل هي مرتبطة بمعاناة الموقف الأخلاقي في نفس الفرد وامتزاجه بتجربته البشرية.. وقال «سانتهلير» في مقدمة ترجمة كتاب الأخلاق لأرسطو[1]:

«ليس ما يقع فيه لإنسان من الإثم ناشئاً عن خطأ في الموازنة بين اللذة الحاضرة وبين الآلام المستقبلية، التي هي أكبر منها كما يعتقد سقراط، ولا ناشئاً عن جهل بطبائع الأشياء، وإنما منشأة فساد في الخلق يحمل الإنسان على تفضيل الشر على الخير، وهو عالم بهما وبقيمة كليهما جميعاً».

---

(١) تاريخ الأخلاق ـ د. محمد يوسف موسى ص ٧٠.

وفي الحق فإن القضية القائلة: «الفضيلة علم والرذيلة جهل» لها نصيب من الصحة لاعتبارات منها:

١ ـ الأعمال بالنيات ولا تتوافر نية الخير إلاّ بعد العلم بخيريته.

٢ ـ عشوائية فعل الخير لا تسمو به إلى مرتبة فضائل الأخلاق.

٣ ـ إن الشرير قد لا يريد الشر لذاته وإنما يعمله لخير يؤمله في زعمه فالسارق يوهم نفسه بالذكاء والشجاعة، وللتطاول على الناس يُرضي في نفسه الغرور والكبرياء.

٤ ـ كثير من الأشرار يعملون الشر نتيجة خطأ في الموازنة وجهل بالعواقب.

٥ ـ إن أفلاطون لم يهمل العمل والخبرة الأخلاقية، بل قد أكد ضرورة التربية منذ حداثة السن، واجتياز تجارب الحياة بنجاح، وقمة الفضائل عنده هي التوجه إلى عالم المثل ثم العودة إلى كهف الحياة للممارسة والتطبيق.

٦ ـ ومسك الترجيح لتلك القضية ما ساقه المفسرون في قوله تعالى: ﴿ إنّما التوبةُ على اللَّهِ للذينَ يعملونَ السوءَ بجهالةٍ ثُمَّ يتوبونَ منْ قريبٍ فأولئكَ يتوبُ اللَّهُ عليهم وكانَ اللَّهُ عليماً حكيماً ﴾ (النساء: ١٧).

فقد روي عن مجاهد: «من عصى اللَّهَ فهو جاهل حتى ينزع».

وقال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ما عُصي به الله فهو جهالة عمداً، كان أو لم يكن وكل من عصى الله فهو جاهل؛ وحكى الله تعالى قول يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿ هل علمتُمْ ما فعلتُمْ بيوسفَ وأخيهِ إذْ أنتم جاهلون ﴾ فنسبهم إلى الجهل لمخاطرتهم بأنفسهم في معصية الله تعالى[1].

هذا وقد اتهم الدكتور عبد الرحمن بدوي أفلاطون فقال[2]: (تلك هي الفضائل الأربع التي قال بها أفلاطون أما مصمون كل فضيلة من هذه

(١) راجع تفسير هذه الآية في تفسر الخطيب الشربيني وابن كثير والرازي.

(٢) أفلاطون ص ٢١٧.

الفضائل والطرق التي بها تتحقق والكيفية التي تحقق على نحوها فهذا لم يبحث فيه أفلاطون بحثاً عميقاً يستحق أن يذكر).

فالاتهام عجيب جداً فإن محاورة الجمهورية ـ لدى بعض الباحثين ـ محاورة أخلاق فحسب، وما تضمنته من نظام الدولة ليس مقصوداً لذاته، وإنما هو أنموذج مكبر للدولة القائمة داخل نفوسنا، وقد سعى أفلاطون سعياً حثيثاً لإبراز منهج التربية الذي ينهض بالإنسان عقلاً وعاطفة وجسداً، وإن تحليله لطبائع الناس وانحرافاتهم عن الفضيلة ليستحق كل تقدير، فهو يضعنا أمام كل ظاهرة بأسبابها ونتائجها.

ب ـ الفن للأخلاق:

تلك هي الغاية لدى أفلاطون فالفن يحمل رسالة مجتمعه ولا يستوحي خيالاً جامحاً وأوهام أحلام، وقد جعله أفلاطون أسلوب تربية ومنهج تهذيب بقلم الفن البارع وريشته المبدعة وصوته الرخيم ونغمته الساحرة.

ويبدو أن رأي أفلاطون في الأسلوب الأدبي يميل إلى الغلو في النقد، والتكلف في التوجيه، فقد أقحم مقاييس الفلسفة على الشعر والفن، فحيث يكون الثبات والوحدة مقياساً يكون التنوع والكثرة هي سمة العمل الفني، وحين يربط أفلاطون نظريته في المثل بنظريته في الفن يفقد الأثر الفني عمق إحساسه وروعة خياله.

ولو طبقت أحكامه الصارمة على محاوراته بوجه عام لكان أفلاطون أول المبعدين من مدينته الفاضلة، فقد تقمص شخصيات خصومه وصاغ آراءهم بدقة فائقة، وأبرز مذاهبهم المضللة وامتاز بالحبكة الفنية والصياغة الأدبية!!.

جـ ـ يجدر بنا أن نبرز الجانب الأخلاقي في الإسلام كمثل أعلى للبشرية تتقاصر دونه كل الفلسفات.

١ ـ العقيدة في الإسلام هي منبع الأخلاق وعليها يقوم أمر الانسجام

النفسي والاستقرار الداخلي، ووحدانية الله في الذات والصفات والأفعال هي محور الدائرة.

واستمع لذلك التشبيه الرائع لأثر العقيدة في الاطمئنان القلبي قال تعالى: ﴿ ضربَ اللَّهُ مثلاً رجلاً فيه شركاءُ متشاكسون ورجلاً سلماً لِرجلٍ هل يستويان مثلاً. الحمدُ للَّهِ بلْ أكثرُهم لا يعلمون ﴾ (الزمر: ٢٩).

وقال سبحانه: ﴿ ومَنْ يُؤمِنُ باللَّهِ يهدِ قلبهُ ﴾ (التغابن: ١١).

٢ ـ العبادات في الإسلام تزكيةٌ للسمو الروحي والفطرة الملائكية في الإنسان، بعيداً عن شهوات النفس الآثمة.

قال تعالى في شأن الصلاة:

﴿ أتلُ ما أُوحي إليكَ مِنَ الكِتابِ وأقمْ الصلاةَ إنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عنِ الفحشاءِ والمنكر ﴾. (العنكبوت: ٤٥).

وقال جلّ شأنه في شأن الزكاة:

﴿ خُذْ من أموالِهم صدقةً تُطهِّرهم وتزكِّيهمْ بِها وصلِّ عليهمْ إنَّ صلاتَكَ سَكَنٌ لهمْ ﴾ (التوبة: ١٠٣).

وقال عز وجلَّ في شأن الصوم:

﴿ يا أيُّها الَّذين آمَنُوا كُتبَ عليكُمْ الصيامُ كما كُتِبَ على الَّذين من قبلِكُمْ لعلكم تتقون ﴾. (البقرة: ١٨٣).

وقال سبحانه في الحج:

﴿الحجُّ أشهرٌ معلوماتٌ فمَنْ فَرضَ فيهنَّ الحجَ فلا رفثَ ولا فسوقَ ولا جِدالَ في الحجِّ وما تفعلوا منْ خيرٍ يعلمهُ اللَّهُ وتزوّدوا فإنَّ خيرَ الزّادِ التقوى واتقونِ يا أولي الألباب ﴾. (البقرة: ١٩٧).

٣ ـ المعاملة هي ملتقى روافد الإيمان كلها، وعنوانها العام هو البر والتقوى

قال تعالى: ﴿ وتعاونوا على البرِّ والتَّقوى ولا تعاونوا على الإثمِ والعدوانِ ﴾. (المائدة: ٢).

ولشيء من التخصيص نقول:

* الأسرة قائمة على المودة والرحمة، وقانونها هو الإحسان والمعروف قال تعالى: ﴿ فأمسِكُوهُنَّ بمعروفٍ أو سرحوهنَّ بمعروفٍ، ولا تمسكوهنَّ ضِراراً لتعتدوا ومنْ يفعل ذلك فقد ظلمَ نفسَهُ ﴾. (البقرة: ٢٣١).

* للوالدين حق المعاملة الرقيقة المهذبة قال تعالى: ﴿ وقضىٰ ربُّكَ أنْ لا تعبدوا إلاّ إيّاهُ وبالوالدين إحساناً، إمّا يبلُغَنَّ عندَك الكبر أحدُهما أو كلاهما فلا تقلْ لهما أفٍّ ولا تنهرْهُما وقلْ لهُما قولاً كريماً واخفضْ لهما جناحَ الذلِّ من الرحمةِ وقلْ ربِّ ارحمهما كما ربيّاني صغيراً ﴾. (الإسراء: ٢٣، ٢٤).

* للضعفاء حق المعونة والنصرة، سواء أكان الضعف مادياً أم بدنياً قال سبحانه: ﴿ فآتِ ذا القُربى حقَّهُ والمِسكينَ وابنَ السبيلِ ذلكَ خيرٌ للذين يُريدون وجهَ الله وأولئك همُ المفلحون ﴾. (الروم: ٣٨).

* الطاقة الإنسانية موجهة للخير فكراً وعاطفةً وسلوكاً.

قال جل شأنه: ﴿ ادعُ إلى سبيلِ ربِّكَ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ وجادلهم بالتي هي أحسنُ ﴾. (النحل: ١٢٥).

وقال عز اسمه: ﴿ قل للمؤمنين يغضوا منْ أبصارِهم ويحفظوا فروجَهُم ذلكَ أزكى لهم إنَّ اللَّهَ خبيرٌ بما يصنعون وقل للمؤمناتِ يَغضُضْنَ منْ أبصارِهنَّ ويحفظنَ فروجَهُنَّ ولا يُبدينَ زينتهنَّ إلاّ ما ظهرَ منهَا. . . ﴾. (النور: ٣٠، ٣١).

وقال تبارك وتقدس: ﴿ ولا تُصعِّرْ خدَّكَ للنّاسِ ولا تمشِ في الأرض مرحاً إنَّ اللَّهَ لا يحبُّ كلَّ مختالٍ فخورٍ، واقصد في مشيك واغضضْ من صوتِكَ إنَّ أنكرَ الأصواتِ لصوتُ الحميرِ﴾ (لقمان: ١٨، ١٩).

وأخيراً، فإن الأخلاق في الإسلام لا توصف بغير أنها إسلامية وكفى.

هل هي أخلاق قوة؟.
هل هي أخلاق محبة؟.
هل هي أخلاق قصد واعتدال؟.
هل هي أخلاق اجتماعية؟.
هل هي أخلاق إنسانية؟.

يجيب الأستاذ العقاد فيقول[1]:

(هي كذلك أحياناً ولكنها ليست كذلك في جميع الأحيان، لأن أخلاق القوة قد تفهم على وجوه متعددة أو متناقضة، يحمد الإسلام بعضها ولا يحمد بعضها، أو يذمها جميعاً إذا فهمت على مذهب فلاسفة القوة في العصر الأخير. وقد توصف الأخلاق في الإسلام بأنها أخلاق محبة؛ لأن أصول العلاقات بين الناس قائمة في الإسلام على شرعة المحبة والأخوة، كأنهم من أسرة واحدة، ولكن الإسلام ينكر من المسلم أن يحب الخبيث كما يحب الطيب، ويعرف العداوة في الحق كما يعرف الصداقة فيه. وليس قوام الأخلاق كله في التوسط أو في القصد والاعتدال على مذهب الفلسفة اليونانية أو فلسفة أرسطو على الخصوص، وليس مآل الأخلاق كله في الإسلام إلى وحي المجتمع أو وحي الإنسانية برمتها؛ لأن المجتمع قد يُدان بأخلاقه كما يدان الفرد؛ ولأن الإنسانية لا ترتفع إلى ما فوق جوانب الضعف فيها إن لم يكن لها من المثل العليا ما يسمو عليها أو تسمو هي إليه جيلاً بعد جيل).

* * *

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ٢٨١.